

أثر اختلاف الدين في العلاقة النفسية

تأليف

د. عبدالله بن إبراهيم الطريقي

الأستاذ بالمعهد العالي للقضاء

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :
خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه وفضله على كثير من
مخلوقاته.

كما قال الحق تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ،
ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) [الإسراء : ٧٠] .
وكان لهذا التكريم تبعات ومسؤوليات جسام ، أُلقيت على عاتق هذا
الإنسان ، فبقدر هذا التكريم والتشريف ، كانت المسؤولية والتكليف .

ولذا قال الحق تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات : ٥٦] .
وقال : (وما أمروا إلا ليعبدوا لله مخلصين له الدين حنفاء ...) [البينة : ٥] .
وإذا كان الإنسان قد تحمل هذا التكليف أو الأمانة ، فإن رحمة الله اقتضت
أن يكون لدى هذا الإنسان الاستعداد للخير ، والميل إلى التدين ، فغرس في نفسه
غريزة التدين والتأله.

والأصل أن هذه الغريزة صفحة بيضاء تعكس الإقرار بالربوبية للخالق
سبحانه.

ولعل هذا مما تشير إليه الآية الكريمة : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من
ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا ، أن
تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) [الأعراف : ١٧٢] .

ومما يشهد لذلك ما جاء في الحديث الصحيح (كل مولود يولد على
الفطرة ...) ، والحديث الآخر : (خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم
عن دينهم) .

وكل ذلك يؤكد أن التدين غريزة وفطرة ، وعلى هذا فالإلحاد أو اللادينية
أمر عارض على البشرية ، سواء بصفتهم أفراداً أو جماعات.

ومن أجل ترسيخ هذه الفطرة وتعميق العبودية لله الواحد، أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، حتى تقوم الحجة على الناس أجمعين، ولئلا يحتج الإنسان بالحجج والأعذار عندما يضل عن سواء السبيل.

إلا أن الأمم منذ عهد رسول الله نوح عليه السلام حتى خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، وحتى عصرنا هذا وإلى قيام الساعة، لم ولن تكون استجابتها لداعي الله هينة، بل إن أكثر الناس من سائر الأمم والملل مازالوا يختارون الضلالة على الهدى، بسبب التقليد الأعمى والتعصب للقوم أو للوطن أو للمذهب والملة.

وبنظرة عجل على واقع الأمم الحاضرة على هذا الكوكب الذي نعيش عليه، يلحظ كثرة الديانات والملل والنحل والمذاهب والمبادئ، ورغم انتشار المذاهب المادية والإلحادية.

وإذا قابلت شخصاً من أي من أصحاب الديانات ثم حاورته في الجوانب الفكرية والعقدية، فستجد لديه فلسفة أو رؤية للوجود وللحياة وللعبادة والتدين، على اختلاف في عمق هذا التدين في نفسه، ومدى اقتناعه به.

بل يلحظ أنه متى تقابلت أمتان في مواجهة فكرية، فإنك واجد لدى كل أمة عصبية لفكرة، واعتذاراً بالمبدأ الذي تقوم عليه.

وقد يتجاوز الأمر مستوى مجرد الانتماء للدين والمذاهب إلى مستوى الحب والعشق والالتزام، مما يجعل الإنسان يدافع عن مبادئه بكل وسائل الدفاع ولو كلفه ذلك زوال ماله أو نفسه.

ولذا يقول الحق تعالى في تنزيهه : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ...) [الأنعام : ١٨].

والشاهد هنا المقطع الأخير من الآية الكريمة.

يقول الإمام الطبري : " أي كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على عمل من

الأعمال من طاعة الله ومعصيته، عملهم الذي هم عليه مجتمعون".

وإذا كان واقع الأمم هكذا من تشبث بالدين والمبدأ والتعصب، فإن ذلك يقتضي بطبيعة الحال أن يكون لدى كل أمة إحساس لا شعوري بانتماء لهذا الدين، والانتماء والميول - من ثم - إلى كل من ينتمي للدين، بحيث يشعر كل فرد من الأمة بأنه جزء من هذا الجسم.

وتختلف درجة الإحساس تلك، بحيث قد تترقى إلى أن تكون لدى الإنسان هي معيار الحب والبغض، والقرب والبعد، والصداقة والعداوة، بل قد يتجاوز ذلك إلى درجة الاجتماع أو النزاع، ثم الصراع والقتال أو التناصر والاتحاد.

وهذه حقائق لا يمكن إنكارها، حتى من لدن من يأبى الصراع بين الأمم ويمقتة، ويتمنى أن تعيش بسلام ووئام.

والتاريخ الماضي والحاضر يؤكد تلك الحقائق، وهي أن العلاقة بين الأمم تحكمها الدوافع والميول النفسية بدون شك.

نعم قد يكون ثمة دوافع أخرى تكون سبباً في التقارب أو التباعد، لكنها عارضة، ومعرضة للزوال، مثل : تبادل المصالح والمنافع، والتجاور، وتبادل الهدايا وعقد العهود والمواثيق، ليرجع كل إنسان بعد ذلك إلى أصله ومعدنة.

ولذلك يقول الشاعر العربي :

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك في الدين

ولما كان الأمر كذلك، كانت عقيدة الولاء والبراء من صميم عقائد الأمم وأصحاب الديانات بعامه.

وأصبح لهذه العقيدة مكان فسيح في التشريع العقائدي الإسلامي، وجاءت النصوص الكثيرة التي تؤسس هذا المبدأ وتعمقه في نفوس أهل الملة الإسلامية.

وليس في ذلك أدنى غرابة؛ لأن كل الأمم تؤمن به وتنطلق منه.

وإذا كانت بعض الملل تدعو إلى التسامح مع الآخر فإنه تسامح محدود، يدعو إلى عدم الصدام والصراع مع الأمم والحضارات الأخرى، لكنه لا يلغي ما في النفوس من معاني الحب والكراهة ولا يزيلها.

ومما يعزز ذلك ما يلحظ في العلاقة بين اليهود والنصارى، من النفرة والتباغض منذ بعثة المسيح عليه السلام، وإلى العصر الحاضر بل إلى قيام الساعة. نعم قد توجد بينهما علاقة ما من التقارب والموالة ولكنها عارضة ومؤقتة وناشئة بأسباب قاهرة، مثل وجود خصم مشترك بينهما.

ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض) [المائدة : ٥١].

إذا تقرر ذلك فإن علاقة المسلم بغير المسلم، وعلاقة الأمة المسلمة بغيرها من الأمم، وعلاقة الدولة المسلمة بغيرها من دول العالم، هي بلا شك محكومة بعقيدة الولاء والبراء.

إلا أن لذلك ضوابط تشريعية يجب التقيد بها.

ويمكن إجمال ذلك في النقاط الآتية :

- ١ - مشروعية محبة الخير كله، وكراهية الشر كله.
- ٢ - مشروعية محبة الله تعالى ومحبة رسوله محمد ﷺ وجميع الرسل.
- ٣ - مشروعية محبة ما يحبه الله ورسوله ﷺ.
- ٤ - مشروعية بغض ما يكرهه الله تعالى ورسوله ﷺ.
- ٥ - مشروعية محبة المؤمنين (المسلمين).
- ٦ - مشروعية بغض الشيطان وأوليائه.
- ٧ - عدم مشروعية محبة غير المسلمين.
- ٨ - وجوب العدل مع كل الناس.
- ٩ - تحريم الظلم والغش لجميع الناس.

- ١٠ - مشروعية البر والإحسان إلى جميع الناس.
 - ١١ - جواز التعامل المشروع مع كل الناس في الجملة.
 - ١٢ - الدعوة إلى الرفق في المعاملة.
 - ١٣ - دعوة الناس إلى الحق بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.
 - ١٤ - أن أمور الدنيا ميدان للتنافس بين الناس كلهم، ولا مانع من التعاون فيها وتبادل المنافع والمصالح.
 - ١٥ - أن من وقف في وجه الحق وانتشاره، أو اعتدى على المسلمين فالمشروع جهاده وقتاله حتى لا تكون فتنة .
- ويمكن إعادة هذه الضوابط إلى أربعة منها، هي : العدل، والبر، والدعوة، والتعاون مع عدم الموالاة.
- وبهذه الضوابط تكون العلاقة بين المسلم وغيره من المخالفين قد سلكت مسلكاً متوازناً ومعتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط .
- ومن مسالك الإفراط التي يمارسها بعض الناس، اعتقاد أن العلاقة بالكفار قائمة على مبدئين فحسب هما : البغض، والجهاد.
- كما أن من مسالك التفريط التي يمارسها بعضنا، اعتقاد أن العلاقة بين الأمم قائمة على مبادئ: المودة، والمساواة، والسلام.
- والم تأمل في هدي محمد عليه الصلاة والسلام في علاقته ومعاملته للكفرة يلحظ قطعاً أنها تختلف عن كل من المسلكين، بل هي قائمة على المبادئ الأربعة الآتية الذكر.
- والله ولي التوفيق .